

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَنْقَوْمُوا إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾

إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ : وقت مجيء عذابه إن لم تؤمنوا.

سيدنا نوح عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم - عليه السلام - وقد لخص القرآن هنا فحوى رسالته التي عرضها على الفاسدين من أهل زمانه في النقاط الثلاث التالية : العبادة، التقوى، وإطاعة الرسول . يعني التخلي عن عبادة غير الله وإفراد الله وحده بالعبادة دون شريك ، وتأسيس الحياة الدنيا على تقوى الله وخشيته ، وأخيراً اعتبار الرسول هو القدوة في كل شأن من شؤون الحياة ، وهذه النقاط تمثل دعوة جميع الأنبياء المرسلين على اختلاف الأزمنة والأمكنة، كما أنها هي جوهر دعوة القرآن الكريم كذلك .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٨﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٩﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

مَدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۝ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝ ﴿١٠﴾

فِرَارًا: تَبَاعِدًا وَنَفَارًا عَنِ الْإِيمَانِ.

وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ: بِالْغَوَا فِي التَّغْطِي بِهَا كِرَاهَةً لِي.

وَأَصْرُوا: تَشَدَّدُوا وَانْهَمَكُوا فِي الْكُفْرِ.

يُرْسِلِ السَّمَاءَ: الْمَطَرَ الَّذِي فِي السَّحَابِ.

مُدْرَارًا: غَزِيرًا مُتَابِعًا.

لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا: لَا تَعْتَقِدُونَ أَوْ لَا تَخَافُونَ عِظَمَةَ اللَّهِ.

خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا: مُدْرَجًا لَكُمْ فِي حَالَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ.

سَمَوَاتٍ طِبَاقًا: كُلُّ سَمَاءٍ مُقْبِيَةٌ عَلَى الْأُخْرَى.

نُورًا: مُنُورًا لَوَجْهِ الْأَرْضِ فِي الظَّلَامِ.

الشَّمْسُ سِرَاجًا: مُصْبِحًا مُضِيئًا يَمْحُو الظَّلَامَ.

أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ: أَنْشَأَكُمْ مِنْ طِينِهَا.

الْأَرْضُ بِسَاطًا: فَرَاشًا مُبْسُوطًا لِلْإِسْتِقْرَارِ عَلَيْهَا.

سُبُلًا فِجَاجًا: طَرِيقًا وَاسِعَاتٍ.

يتضح من خطبة نوح هذه أنه قد اختار لدعوته الأسلوب نفسه الذي تبناه القرآن لإقناع الناس بما يدعوهم إليه، حيث عرض الخطبة دعوته مستدلاً بشتى الظواهر الكونية، كما خاطب قومه بكل الطرق الممكنة سراً وعلانية، وعلى المستويين الفردي والجماعي، وقد استنفد كل طاقته في سبيل إصلاحهم وإرشادهم إلى الحق، ولكنهم أبوا الإيمان بدعوته وتمادوا في غيهم وطغيانهم يعمهون، وقال ابن عباس في تفسير قوله: ﴿لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمتة ^(١).

ومن هذا نعلم أن قوم نوح كانوا يسلّمون بوجود الله، إلا أن الشعور بعظمة الله وجلاله لم يكن مستولياً على نفوسهم كما ينبغي، والحقيقة أن هذا هو المعيار الحقيقي لعبادة الله وعبوديته.. فمن يعيش هنا وقلبه مملوء بعظمة الله، فهو عابد لله حقاً، وأما من كان قلبه خاوياً من الإحساس بعظمة الله فليس من عباد الله وعبوديته في شيء!

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا ۝ كَبَارًا ۝ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۝ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝﴾

خَسَارًا: ضللاً في الدنيا وعقاباً في الآخرة.

مَكْرًا كَبَارًا: بالغ الغاية في الكفر.

وَدًّا: أصنام عبدوها ثم انتقلت إلى العرب، فكان ود لكلب.

سُوَاعًا: وسواع هذيل.

يَغُوثَ: ويغوث لغطفان.

وَيَعُوقَ: ويعوق لهمذان.

وَنَسْرًا: ونسر لآل ذي الكلاع من حمير.

ثُمَّ خَطِيبًا نَحْمُ: من أجل ذنوبهم و"ما" زائدة.

لماذا قبلت دعوة نوح - ﷺ - من جانب قومه بالرفض والإنكار؟ لقد كان السبب في ذلك أن كلام نوح بدا للقوم أقل قيمةً ووزناً من كلام أولئك الذين كانوا يحتلون يومئذ مراكز السيادة والكبرياء والوجاهة الدنيوية، فبينما جحد كبار العصر بدعوة الحق معتزّين بمكانتهم وكبرياتهم، تناولها الصغار بالجحود نظراً إلى كون كبارهم جاحدين لها!

ولقد دبر معارضو نوح مكائد عظيمة ضده، من بينها دعايتهم المغرضة! إن نوحاً قد جاء بما يتنافى مع ما كان عليه أكابرنا وهم ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهؤلاء الخمسة كانوا أفراداً صالحين في قديم الزمان، ثم وصل بهم الأمر شيئاً فشيئاً إلى أن صاروا موضع الإجلال والتقديس لدى الأجيال التالية، وبالتالي راحوا يعبدونهم باتخاذ أصنام وتمثيل ترمز إليهم، ولقد كان من السهولة بمكان أن يتم تحريك مشاعر العامة وتحريضهم ضد نوح بأسماء هذه الرموز، وقد استطاع الرؤساء بالفعل أن يجعلوه - ﷺ - "مشبوهاً" في أعين الجماهير قائلين: إنه سائر في طريق آخر جديد حائداً عن طريق أسلافنا الصالحين!

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا ۖ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۖ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۝﴾

دَيَّارًا: أحداً يدور ويتحرك في الأرض.

تَبَارًا: هلاكاً ودماراً.

يظهر من دعاء سيدنا نوح هذا أن الفساد في عصره كان قد استفحل حتى بلغ منتهاه، حيث صار المجتمع بأسره خاضعاً لسيطرة العقائد الضالة والأفكار المنحرفة، وأصبح كل طفل يولد في رحاب ذلك المجتمع يومئذ يرث جرثومة الانحراف الفكري والضلal العقائدي، ويتربى عليها، وإذا بلغ مجتمع ما إلى هذا الحد من التدهور والانحراف، وطغيان الشر، فلا ينتظره بعد ذلك شيء سوى أن يُقضى عليه بطوفانٍ كطوفان نوح!!